من ذكريات المحرم:

هجرة في سبيل اللّه وشهادة في سبيل الحق

- 1 -

بعث الله النبي الكريم على فترة من الرسل في عصر غير ذي دين، وجيل غير ذي خلق، وبلد غير ذي زرع: فلقى صلوات الله عليه من سفه الجاهلية وكلب المادية وكيد العصبية وحرمان الفقر وخذلان القلة ما لا يسعه طوق بشر إلا بروح من الله وسند من الإيمان وعون من الخلق.

حمل محمد رسالة الله وهو فقير ضعيف، وحمل أبو جهل رسالة الشيطان وهو غني مسلط، فحول مكة المشركة جبلاً من السعير سد على الرسول طريق الدعوة، فكان يخطو في طرقها وشعابها على أرض تمور بالفتون وتفور بالعذاب، وتفجر عليه في كل خطوة سفاهة أبي لهب بالأذى والهون والمعاياة والمعارضة – وكل قرشي كان يومئذ أبا جهل أو أبا لهب إلا من حفظ الله. وافتن كفار مكة ومشركو الطائف في أذى الرسول فعذبوه في نفسه وفي أهله وفي صحبه ليحملوه على ترك الدعوة فما لان ولا استكان ولا خضع. وحينئذ تدخل الشيطان بنفسه في (دار الندوة) فقرر القتل، وتدخل الله بروحه في (غار ثور) فقدر النجاة !.

كانت ليالي الغار أحلك الهم في تاريخ الدعوة: سيوف الغدر مصلته في أكف الفتية المختارين من قبائل قريش يرقبون مثوى الرسول بعيون لا تغفل، وعلى نائم في فراش ابن عمه متسجيًا ببردة يوهم القوم أن طَلبتهم بين أيديهم حتى لا يطلبوها في مكان آخر. والمهاجر الفار بدينه من صولة الكفر لائذ بالغار في أسفل مكة يحصن نفسه بذكر الله، ويطمئن قلبه بسكينة الصبر، ويقول لصاحبه وهو لا يتقارُّ من الخوف ولا يتماسك من الأسى: " لا تحزن إن الله معنا ". والمؤتمرون حين كشف لهم الصباح عن وجه الخديعة يطلبونه في كل مكان ويرصدونه بكل سبيل، حتى إذا لم يبق بينه وبين الرسول والصِّديق إلا نظرة وخطوة، أراد الله أن تدرك قدرته كلمته فطمس عين الباطل فلم ير، وزلزل قدم الشرك فلم يلحق، وانطلق محمد هو وصاحبه ودليله وخادمه على عيون

المشركين في الطريق الموحش الوعر حتى بلغوا طيبة. وهنالك بالصبر والصدق والإيمان والرجولة أثمر غرس الدعوة وتم نور الله. جمع الرسول شتات الجماعة، وثق عقدة الدين، وأعد أهبة الجهاد، فألف بين الأوس والخزرج، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وعاهد بين المسلمين واليهود، حتى تكتب في يثرب جيش الله الذي فتح الدنيا بفتح مكة.

لم تكن هجرة الرسول هربًا من وجه الموت كما يسميها كُتاب الفرنج. فإن الأمر لو كان أمر الحياة لترك الرسول الدعوة وظل عزيزًا في قومه آمنًا في سربه، ولكنه أمر الله الذي قال فيه لعمه أبي طالب: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهر الله أو أهلك دونه ما تركته. إنما كانت الهجرة خروجًا من أرض نبت على الغراس الإلهي فلم تدعه ينبت، وتحولاً عن قوم صدوا عن سبيل الله فلم يدعوها تؤدى. وما كانت دعوة الحق في مكة إلا غيثًا أنزله الله في يَبَاب[1] القفر فغاض بعضه في سباخ الأرض واحتبس بعضه في أصلاد الصخر، ثم نفس الله عنه من شدة الضيق والحصر فانبثقت عنه الحواجز الصم فجرى سيولاً في السهول والأودية، وتشعب ينابيع في القرى والمدائن، يحمل الخصب والنماء، ويوزع الري والغذاء، فأحيا موات الأرض، وروى غلة الناس، وكان منه العمارة والحضارة والخير.

كانت هجرة الرسول إلى المدينة هي هذا الانبثاق الذي انساح به الإسلام في أقطار الأرض يحمل الهدى للأرواح الحائرة، والسلام للنفوس المحروبة، والألفة للقلوب المختلفة، ويحقق لهذا الإنسان طريد العدوان وعبد الطغيان أحاديث أحلامه وهواجس أمانيه، من الأخوة التي يعم بها النعيم، والمساواة التي يقوم عليها العدل، والحرية التي تخصب بها المدارك.

كان حادث الهجرة الذي جعل عمر الحكيم العظيم عامه تاريخًا للمسلمين عامة يحسبون منه أيامهم ويؤرخون به أحداثهم، ملحمة من ملاحم البطولة استمدت إلهامها

---

(1) قلت: اليَبَابُ : الخَراب. و اليَبَابُ الخالي لا شيءَ فيه . يقال : أرضٌ يبابٌ ، ودارُهم خرابٌ يَبابٌ . وحوضٌ يبابٌ : لا ماءَ فيه .

من وحي الله، وروحها من خلق محمد، وعملها من صدق العرب، واستقرت في مسامع الأجيال والقرون مثلاً مضروبًا لقواد الإنسانية يعلمهم الصبر على مكاره الرأي، والاستمساك في مزالق الفتنة، والاستبسال في مواقف المحنة، والاستشهاد في سبيل المبدأ.

ثم كانت الهجرة أساسًا لصرح الوحدة العربية أرساه الرسول في المدينة، ثم قواه بفتح مكة، ثم أعلاه خلفاؤه الراشدون بجمعهم العرب باديهم وحاضرهم على نظام ديمقراطي حر، وفي حكم ديمقراطي منزه. فأصبحت السيادة للدين لا للنسب، وللإخاء في الله لا في العصب.

- 2 -

ثم انصدع هذا الصرح بالفتنة الكبرى واشتداد النزاع على الإمامة بين علي ومعاوية، أو بين هاشم وأمية، وما اقتضته سياسة الأموي الأول من تغليب العصبية القبلية على القومية لعربية، وإيثار السياسة الدنيوية على السياسة الدينية؛ وجعله ولاية العهد لابنه المستهتر بطريق لا سليم ولا قويم، واستبداد الهوى المريض بقلب خليفته يزيد. وكان بنو علي قد ورثوا عنه ما ورثه هو بحكم مولده ومرباه من مناقب النبوة ومواهب الرسالة، فتولوا المعارضة بصراحة المؤمن، وقادوا حركة الإصلاح ببسالة المجاهد، وساسوا الناس بسياسة أبيهم، فما فارقوا الأثرة، ولا حاولوا الفرقة، ولا راقبوا الفرصة، ولا أثاروا العصبية، ولا استخدموا المال؛ ولكن دنيا الفتوح كانت يومئذ قد أخذت تتجاهل دنيا البساطة والزهد، فلم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بسرف القصر في الشام وترف العيش في العراق، فقد أمر بني علي بين طغيان الحكومة وخذلان الشعب. وشق على الحسين أن يرى دعوة جده تصير دعاية، وخلافة أبية تنقلب ملكًا، ووحدة قومه تصبح شتى، فنهض بنفسه للأمر وأخذ يستنفر القبائل ويستنصر الأحزاب فما رجع من سعيه لديهم بطائل. ورأى له القدر المقدور أن يلتمس النصرة عند شيعة أبيه في العراق، وكانوا قد وعدوه بالرسل، ومنوه بالرسائل، أن يريضوا له الأمر ويجمعوا عليه البيعة. فشخص إليهم بقومه، وكانوا لا يزيدون على الثمانين، فيهم نساؤه وأولاده، وهو يردد في نفسه ما قاله لأخيه محمد في وصيته: " إني

لم أخرج أشرًا ولا بطرًا، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فمن قبلني لقول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد على هذا صبرت حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين ".

ولكن جيش يزيد وكله من أهل العراق اعتراض سبيله إلى الكوفة وفي قلب قائده العدوان وعلى لسانه التحدي، فقابل ابن زياد الحلم بالسفه، والمنطق بالعناد، والإباء بالتحرش، وحمل الحسين حملاً على قتال يائس، ثم منعه ورد الفرات وأورده ظمآن حوض المنون، فقتل سبط الرسول ومن معه قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر !.

هاتان ذكريان يخطرهما على البال حلول شهر المحرم من كل عام: ذكرى هجرة الرسول، وهي عيد انطلاق المحمدية من حصار مكة، وانبثاق الرسالة الإلهية في أفق المدينة، وانعتاق الإنسانية كلها من رق الجهالة. وذكرى مصرع الحسين، وهي مأتم الحق المقتول والمحق المخذول والوحدة التي انصدعت فلم تلتئم يومئذ حتى اليوم. لذلك يستقبل المسلمون عامهم الهجري بوجهين مختلفين ومظهرين متباينين: بعضهم يذكر به انتصار المهاجر العظيم فيلقاه بوجه منبسط وقلب مغتبط، وبعضهم يذكر به استشهاد المجاهد الكريم فيلقاه بصدر ملتاع ووجه مكتئب. ولو أن وحدتنا ظلت جامعة لاستقبلناه بوجه واحد ورأي جميع، وتركنا في ذمة التاريخ تلك المأساة التي شعبت الطريق وفرقت الإخوة وأوهنت العقيدة، وفوضنا إلى مالك الدين الفصل بين خصوم ذهبوا في سبيل الغابرين منذ ثلاثة عشر قرنًا وربع القرن، فيسامحهم الله بفضله، أو يجازيهم بعدله. وذلك هو الأخرى بأمة التوحيد، وزعماؤها الذين ادخرهم الله لتجديد دعوته وتوحيد كلمته هم اليوم بسبيل التأليف بين القلوب، والتوحيد بين المذاهب، والتوفيق بين المصالح، لينقطع الخلاف ويجتمع الشمل، وليس من الحكمة أن يختلف صحابيان في صدر الإسلام ثم يظل الناس على اختلافهما يختلفون، ولا من العدالة أن يأكل الآباء الحصرم الأبناء يضرسون.